

## الحياة العقلية في التراث العربي الإسلامي وأسباب ركودها

\*محمد ابوذر خليل

### Abstract

#### *Phenomena of Rationalism in Ancient Arabs Legacy*

*A profound study of human history in perspective of its various civilizations reveals that every civilization has contributed to the promotion of intellectual and material advancement of human beings, though they differ in quality and quantity.*

*In this context the Greek excelled all the nations. Arabs are considered to be the main agent of transferring Greek science, civilization and culture from West to East. Admittedly Modern Europe is indebted to the Arabs in its present civilization.*

*Some modern writers are of the view that ancient Arabs were devoid of philosophy and rational thinking.*

*In this article I expressed my view that the said opinion is not correct. I believe that Arabs likewise other nations have contributed their best to the promotion of and wellbeing of humanity. They did not lagged behind altogether. However I tried to analyses the situation and pointed out the reasons of their backwardness in fields of science, knowledge and civilization in the later periods.*

### الحياة العقلية في العصر الجاهلي:

الباعث على كتابة هذا البحث الفكرة الخاطئة والصورة التي استقرت في كثير من الأذهان عن الحياة العقلية عند العرب، فيها كثير من الخطاء، فالذي يقرأ ما كتب ويكتب عن الجاهلية، يخيل إليه أن الأمة العربية كانت أمة جهل وعمى، قد عزلت عن العالم وعاشت غارقة في بحر من البداوة والفوضى والتوحش، وليس لها ماضٍ مجيد يشدها إليه، ولا حاضر قويم يجيئ فيها معاني المروءة والهداية<sup>(1)</sup>

وما زال بعض الباحثين من شرقيين ومستشرقين يرددون تلك الأقوال السقيمة على الرغم من تعاقب الأعصار، يقول خدا بخش غامراً شرف العرب.

لقد كانت الناحية الخلقية عند الجاهلين في أشد أوقات جزرها قبيل الإسلام فلم يكن إخلاص الرجل لزوجته شديداً وكان يدعوها إلى معاشرته غيره من الرجال<sup>(2)</sup>

أما (رينان) فيجرد العرب من كل مكانة سياسية وثقافية ودينية<sup>(3)</sup> ويقول آخر: إن العصر الجاهلي عصر ظلام حال<sup>(4)</sup>

\*أستاذ مساعد اللغة العربية وآدابها، جامعة بهاء الدين زكريا، ملتان.

وقد أشاد المعينون بالحضارة الشرقية من الأوربيين، فشاهدوا بعراقة تلك الحضارة وأثرها فيما حولها من الأمم يقول جواد علي في هذا الصدد: يدهش (هومل) لما كان لعرب الجنوب من قلاع وحصون ونقوش، وأثر حضارتهم في العبرانيين واليونان<sup>(5)</sup>

ثم إن العرب أمة من الأمم لها فضائلها ووزائلها مثلما لكل الأمم والشعوب فضائل ووزائل، ولها كذلك نصيب من الحضارة والمعرفة في عهدها الغابر، فقد ورثت الجزيرة تراثاً جليلاً خلفته الأجيال العربية، حيث نجد العالم الناطقة بالجد العريق، وبخاصة في القسم الجنوبي من بلاد اليمن فقد قامت دول معين وسبأ وحمير، وفي الحجر حيث وجدت لحيان وثمود، وفي بطرا ازدهرت دولة الأنباط، والقرآن - كفى به شاهداً - يصف دولة سبأ وما كانت عليه من ترف ونعمة، قال تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾<sup>(6)</sup>

لقد كان العرب الجاهليون على صلة وثيقة بحضارة العالم القديم فضلاً عن حضارتهم العريقة، وقد كانت الصلات قائمة بين العرب وغيرهم من فرس وروم وهنود، وكان من مظاهر ذلك أمانة المناذرة في العراق والغساسنة في الشام، اللتان أتاحتا لتقافة الفرس والروم أن تدخل الجزيرة وتمتزج بتقافة العرب، وقد اتيح للعرب الكثير من الوسائل التي جعلتهم يفيدون من خبرات الأمم الأخرى وعلومهم، فمن ذلك: الأسواق والموااسم التي كانت تقام في أنحاء مختلفة من الجزيرة، كانت الأسواق ملتقى العرب على اختلاف منازلهم وثقافتهم يقصدها التجار من العرب والعجم. فيكون الأخذ والعطاء وتبادل المتاع، ومن البيهبي أن تلتقى الثقافات والعقول، يفيد بعض من بعض من الخيرة والصناعة والعلم، وحتى العادات والتقاليد.

ويقول في هذا الصدد أبو علي المردوقي: ثم يرحلون منها (من صحار) إلى دبا، وكانت إحدى فرض العرب يجتمع بها تجار الهند والسند والصين وأهل المشرق والمغرب، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب يشترون بها ببيع العرب<sup>(7)</sup>

والعرب أنفسهم كانوا يسافرون إلى بلاد الروم والفرس والأحباش، منهم التجار الذين يحملون بضائهم إلى أقصى البلاد ومن أولئك تجار قريش كهاشم وكان متجره إلى الشام وقد مات بغزة، وعبد شمس ومتجره إلى الحبشة وعبد المطلب ومتجره إلى اليمن ونوفل ومتجره إلى العراق، وهؤلاء هم أصحاب الإيلاف من قريش<sup>(8)</sup>

ثم كان من العرب من ساح في الأرض طلباً للهداية والعلم، مثل زيد بن عمرو بن نفيل، الذي شك في الأوثان ورحل يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل وحال في الشام<sup>(9)</sup> والحارث ابن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن<sup>(10)</sup>

كان من أسباب التمازج الحضاري في المجتمع الجاهلي الجاليات الأجنبية التي كانت تغد الجزيرة وتمكث فيها زماناً، وقد يتخذ بعضها الجزيرة موطناً ومقاماً، وطبيعي أن هؤلاء من جنسيات وأديان مختلفة،

الحياة العقلية في التراث العربي الإسلامي وأسباب ركودها  
وعقليات وثقافات متباينة، فمنهم النصراني واليهودي والنجوسي ومنهم الرومي والحيشي والفارسي  
والهندي<sup>(11)</sup> ومن تلك الصلات، وذلك التمازج البشري بين العرب والأقوام الأخرى، أفاد العرب وكسبوا  
كثيرا من الثقافات الأجنبية والعقليات المتباينة.

وهكذا قد ظهرت عند العرب جملة علوم كان أهمها معرفتهم بالنجوم ومواقعها وأنواعها، والرياح  
ومهاجها وقد غنيت اللغة العربية بأسماء المطر والسحاب، وألفوا كتباً كثيرة في ذلك كما برعوا بالطب والبطيرة  
وإن خالطت الخرافة بعض علومهم، وكان لهم بصيرة بالفراسة والقيافة ولهم علم واسع بالتاريخ والأخبار والأيام  
منذ أقدم الأزمنة، أما الأنساب فقد برعوا بمعرفتها وضبطها فعرفوا أصول كل قبيلة وفروعها وأخبارها وأيامها  
وقد ظهرت لديهم الحكمة والأمثال التي يصح أن نستدل بها على رقي عقليتهم ونضج تجاربهم ونظرهم الصائبة  
إلى الحياة.

وقد ذكر الجاحظ جمهوراً من حكماء العرب وذوي الدهاء واللسن، فقال: ومن القدماء من يذكر  
بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والفكر: لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن درام  
ولوى بن غالب وقيس بن ساعدة وقصي بن كلاب، ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤسا: أكثم بن صيفي  
وربيعة بن حزار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن أبي ربيعة<sup>(12)</sup>

وهكذا كان للعرب علم بالنجوم ومواقعها ومسالكها وأنواعها ومطالعها وعرفوا منها أوقات  
الخصب ومهب الرياح وسقوط المطر. قال الجاحظ: وعرفوا الأنواء ونجوم الإهتداء، لأن من كان بالصحاح  
إلا ما ليس - حيث لا أمانة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشقة - مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه لحاجته  
إلى الغيث وفراره من الحذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث، ولأنه في كل حال يرى  
السماء وما يجري فيها من كوكب وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فاردة، وما يكون منها راجعاً  
ومستقيماً<sup>(13)</sup>.

وكان للعرب إلمام بالطب والبيطرة، وهي جملة معارف وخبرات توارثها الناس خلفاً عن سلف،  
وقد عرف منهم بعض الأطباء الحاذقين، كالحارث بن كلدة الثقفي (توفي 13هـ) الذي تعلم الطب في بلاد  
فارس<sup>(14)</sup> وكذلك ابن حنيم التيمي الذي ضرب المثل في خبرته ومهارته بالطب فقالوا: "أطب من ابن  
حنيم"<sup>(15)</sup>

وأما البيطرة فقد تحدث الجاحظ عن معرفة العرب بالبيطرة فقال: كثيراً ما يبتلون بالناب والمخلب،  
وباللذغ واللسع والعض والأكل فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الحاني والجراح والقاتل وحال الجني عليه  
والمخروح والمقتول، وكيف الطلب والمهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما  
يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء<sup>(16)</sup>.

وكذا كانت عناية العرب بالأنساب ومعرفة الأصول والأحساب، قد فاقت كل معرفة حيث دعتهم العصبية إلى أن يحفظوا بدقة كل ما يتعلق بأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، وقد عرف من مشهور نسابيهم: ودغل بن حنظلة الشيباني، وزيد بن الكيس النمري وابن لسان الحمرة، وغيرهم كما عرف أبو بكر الصديق علمه بالأنساب والأيام.<sup>(17)</sup>

ومن جملة معارف العرب في العصر الجاهلي الذكاء، وخصب القرية، وصفاء الذهن والفراسة والقيافة. فالفراسة: الاستدلال بمظهر الإنسان وشكله وسلامة أعضائه على أخلاقه وصفاته وطباعه، والقيافة: تتبع الأثر في الأرض لمعرفة آثار الإنسان أو الحيوان وهم في ذلك حذق وبراعة، فكانوا يعرفون أثر من ضل منهم أو من حيوانهم أو طريق عدوهم حين يهرب منهم... ومن معارفهم التي يداخلها الظن والمصادفة العيافة والزجر والطرق بالحصى، وهي ضرب من التنبؤ - كالكهانة - بمعرفة حركات الطيور والتمنن بها أو التطير منها، وقد اشتهر منهم بنو أسد وبنو لخب، وقد أوضح الجاحظ جانباً من ذلك فقال: وأصل التطير من الطير إذا مر بارحاً وساخماً أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عابنوا الأعور من الناس أو البهائم الأعضب أو الأتر زجروا عند ذلك وتطيروا...<sup>(18)</sup>

قد اتضح من ذلك كله صورة العصر الجاهلي من الناحية العقلية وما كان عليه العرب من العلوم والمعارف الرائجة في عصرهم، وكما تبين من ذلك بأن الأمة العربية لم تكن أمة جهل كما استقر في كثير من الأذهان عن العصر الجاهلي، بل لها كانت تقضي حوائجها المتعلقة بهذا العالم كبقية البشر وكانت توجد بها صلاحية التغيير حسب الحوادث والوقائع، فما من يغير طراً على الطبيعة وما من حضاره قامت، وما من انتصار تحقق وما من تقدم أحرز، وما من اختراع تم، وما من نظرية وُضعت، إلا وتدين لهذا العالم الذي هو عنوان مجد الإنسان، فالعقل والإنسان صنوان لا يفترقان، فالإنسان هو أشقى الكائنات، وما ذلك إلا لأنه يفكر فليس سوى الإنسان من يتألم بالعقل وليس سواه من يشقى بالتفكير ولذلك صدق الشاعر حين قال:

ذوالعقل يشقى في النعيم بعقله وأخوالجهالة في الشقاوة ينعم<sup>(19)</sup>

ومن الملاحظ أن ابن المقفع لا يبدو متأثراً في موضوع العقل بالثقافة الإسلامية متأثراً ذا بال: فهو لا يذكر الآيات المتضمنة معنى العقل ولا يحيل على أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا توجد في مؤلفاته ذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولا عرج على الخلفاء الراشدين مع ما ينسب لعلي من بليغ الحكمة: وقد ورت العرب أيام ابن المقفع بعض الأقوال في العقل تنسب إلى عهود قديمة من الجاهلية وما بعدها لا يبدو أن ابن المقفع تأثر بها ونسب اليهم امثال موجودة تمجد العقل فأكثرهم ابن صفى التيمي دعا إلى التثبت في الأمور وقال: العدم عدم العقل لا عدم المال وآفة الرأي الهوى ودعمته العقل الحلم...<sup>(20)</sup>

وكان للعرب في جاهليتهم ميل إلى تعليل الأشياء والبحث في أسبابها والعرب على صفاء قرائحهم في جاهليتهم لم يعرفوا بتأمل نظري في العمل كما كان الأمر عند اليونان والأمم المتحضرة في تاريخ البشر.

## الحياة العقلية عند العرب في صدر الإسلام:

وما قصدى بما ذكرت في سالف الذكر أن أضفى على العرب أكثر مما لديهم وأصفهم بصفات ليست فيهم، بل القصد به إزالة الأوهام التي كانت وما تزال توجد تجاه عرب الجاهلية بأن حياتهم كلها كانت مظلمة سوداء لا خير فيها ولا نفع في أهلها ومن المعلوم ان العرب أمة من الأمم لها فضائلها وروايلها، مثلما لكل الأمم والشعوب ولها كذلك نصيب من الحضارة والمعرفة في عهدها الغابر.

هذه كانت حال العرب إذ ظهرت فيهم حركة جديدة التي جاء بها محمد(صلى الله عليه وسلم) وهذه الحركة ليست حركة دينية بحتة وإنما هي حركة حضارية وحدثا عالميا ضخما ترتبت عليه نتائج هائلة لم تقف عند الحدود الجغرافية للبلاد التي شهدت بواده الأولى، بل لقد تجاوزت هذه الحدود إلى ما وراءها، واستمرت تفاعلاتها الفكرية والروحية تنتقل من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر حتى فرضت نفسها على تطور الحضارة العالمية وأصبحت إحدى الظواهر الأساسية لتطور الحياة والمجتمع.

ثم إن الرسالة التي جاءت بها هذه الحركة الجديدة في صورة القرآن فلما تحرر عقل الإنسان وتفكيره وتحطم الأغلال المتركمة الموروثة عن الأجيال الماضية والتي عزلت العقل عن تفكيره والقلب عن إحساسه فالقرآن هو الذي يخاطب العقل ويدعوه إلى التأمل والتفكير كما يخاطب القلب والضمير والوجدان ويهز المشاعر والإحساس، جاء القرآن يبينه العقل من سبائه ويمجده ويدعوه إلى التفكير في خلق السماوات والأرض. يقول الدكتور مرحبا: أجل أن القرآن يقدر العقل الحر والتفكير الجري وينعى على التقاليد الجامدة والمعتقدات الموروثة، فلقد أنكر على القوم محاكمتهم آباءهم فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين، وحادلهم بالتي هي أحسن.

وكم اشاد القرآن بالحكمة ولفت أنظارهم إلى أحداث العالم وحثهم على التفكير فيها وبذلك فقد تبلورت الحقيقة الإنسانية عند العرب وعاد إليها اعتبارها بعد أن قضى القرآن على الأسباب والعوامل التي جمدت روح الخلق والإبداع عندهم. لقد أكد القرآن وحدة الله وكرامة الإنسان وقوة عقله وسلطانه على جميع الموجودات وسيكون لذلك كله نتائج خطيرة بعيدة المدى في تاريخ الفكر الإسلامى خاصة والفكر الإنسانى عامة. (21)

## القرآن والعقل:

وقد حث القرآن على استعمال العقل في مواضع كثيرة ورفع مكانته ودعا إلى الربط بين العلم والعمل ليفوز الإنسان في الدارين، والآيات المتعلقة بالعقل الواردة في القرآن الكريم عددها حوالى 46 آية كلها تحث على استخدام العقل في أمور الحياة صغيرها وكبيرها وتدير أمور الدنيا والآخرة، جاء في القرآن ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (22) وقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَلََّا يُعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (23)

ولأن العقل أشد ما ينشط في الصعوبات والمعضلات والغوامض ولا سيما إذا كان ذلك في مجتمع صحي سليم وهكذا فسيكون للقرآن تأثير وأى تأثير في توجيه التفكير في بلاد الإسلام وسيكون منطلقا لحركات عقلية جديدة هي وليدة القرآن<sup>(24)</sup>

يقول: والقرآن يدعو إلى أسهل العقائد وأقلها غموضا وأبعدها عن التقليد بالمراسم والطقوس وأكثرها تحررا من الوثنية والكهنوتية، فقد أبطل القرآن سلطان الأحبار والرهبان والوسطاء بين العبد والرب، ولم يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولي أو متسلط أو صاحب قداسة مطاعة فلا ترجمان بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل والغفران ويقضى بالحرمان أو بالنجاة. فالخطاب في القرآن إنما يتجه إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب وسلطان كهانها وسدنتها<sup>(25)</sup>

وإذا لم يكن القرآن كتابا فلسفيا فليس معنى ذلك أنه لم يكن ذا أثر فعال حاسم في تطور التفكير الفلسفي، ان القرآن ليس فيه نظرية محددة واضحة في طبيعة الله والكون والحياة... على نحو ما نجد في كتب الفلسفة لكنه يتجوى في نفس الوقت على طائفة من الأفكار والآراء تتصل بالله والكون والحياة... ان لم تكن فلسفية بالمعنى الإصطلاحي فمن الممكن جدا أن توجه الفكر الفلسفي وجهة معينة خاصة ما كان ليتجه إليها لولا القرآن فكل مفكر، وكل عالم، وكل فيلسوف سيحسب حسابا للقرآن في كل ما يقول ويكتب، ومن هنا فإن القرآن سيكون محورا لحركات شتى فهو بمثابة المولد الكهربائي الذي يحرك ويثير النشاط لقد كان العمود القفري للأمة الإسلامية كلها فكل عناية المسلمين كانت متجهة إليه حفظا له ومحافظه عليه وتطبيقا لتعاليمه، فقد درسوا جملة جملة وكلمة كلمة، وفي بعض الأحيان حرفا حرفا، بغيرة وتقوى وورع لا نظير لها بين المنقبين في النصوص الدينية، فأعد هذا التحليل نفوسهم لتمارين المناطقة وتحليلات الفلاسفة وبراهينهم في ظلة نشأت العلوم الإسلامية المتنوعة ومن أجله قامت... وكانت علوم القرآن أول تأليف في الإسلام فعنه - لا عن المذاهب الفلسفية - صدرت كل فرقة وفي سبيل فهمه قام كل مذهب، انه كالساق قامت عليه الفروع وامتدت الأغصان أو كالشمس دارت من حولها الكواكب<sup>(26)</sup>

وهكذا يقول ابن رشد في مطلع كتابه (فصل المقال): فأما إن الشرع قد دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فذلك ظاهر في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله سبحانه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾<sup>(27)</sup> وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معا، وكقوله تعالى أيضا ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(28)</sup> وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات، عاليها وسافلها، وكقوله عز من قائل ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ وكقوله أيضا مشيدا بالذين يذكرون الله ويفكرون في خلقه ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(29)</sup> إلى غير ذلك من الآيات لا تحصى<sup>(30)</sup>

## العقل والسيرة النبوية:

بعد ما ذكرنا ما حثه القرآن إلى استخدام العقل، وما أعطاه من منزلة، هو خير دليل إلى أن المخاطب الأول في القرآن هو أصحاب العقول والنهي. فأسلوب القرآن الخطابي هو الدليل إلى ما نحن بصدده. وأما إذا ما نتصفح في السيرة النبوية فنجد السنة النبوية والطريقة المحمدية، فإنما كذلك تحترم العقل والمعرفة مثل ما احترمه القرآن الكريم، والجدير بالذكر في هذا الباب ما رواه القاضي عياض في كتاب (الشفاء في بيان حقوق المصطفى) من حديث سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله صلي الله عليه وسلم عن سنته، قال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كثرتي، والحزن ريفقي، والعلم سلاحتي، والصبر رداي، والرضا غنيمي، والعجز فخري، والزهد حرفتي واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرعة عيني في الصلاة<sup>(31)</sup>

والحديث من أعظم أصول الإسلام، وأصل الأصول في الموضوع، وللزيد في هذا الباب، والشرح لهذا الحديث يمكن الرجوع إلى كتاب (مدارج السالكين) لابن القيم الجوزية الذي هو في الحقيقة شرح لكتاب (السائرين) للشيخ الهروي الذي هو أحد اعلام صوفية الإسلام، كما لا يخلو من الفائدة الرجوع إلى كتاب (النبراس) شرح شرح العقائد للعلامة محمد عبد العزيز الفهراروي عند كلامه عن العقل واعتباره قوة القوة.

وأما قول بعض الناس من المسلمين بأن الشارع عليه السلام قد عارض العقل وخالفه، فلعل هذا الرأي من تأثيرات معتقدات النصاري القائلين: بأن الدين لا علاقة له بالعقل، ولذا نجدهم يقولون في عقيدة التثليث بأنها قد أقيمت علي أساس لا يدركها العقل، وهي ما وراء الفهم الإنساني، ويقولون عند تعليم طلابهم وأولادهم عقيدة التثليث، لا بد لكم أن تقبلوا هذه العقيدة، ولولا يثبتها العقل السليم والمعرفة الصحيحة<sup>(32)</sup>

مع أن الإسلام قد مجّد العقل وأعظمه وتوضح جليا أهمية العقل وأصحابه في الآيات الآتية ذكرها: يقول الله عزوجل: (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) [روم:28] ويقول تعالي: (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) [سورة العنكبوت:35] وقد ذم القرآن أولئك الذين لا يستخدمون عقولهم، قائلا: ( ويجعل الرجس علي الذين لا يعقلون ) [يونس:100]

العلم والعقل لا يفترقان و ياتصالهما تستنتج النتائج الصحيحة حيث يقول الله سبحانه وتعلي: ( وما

يعقلها إلا العالمون ) [سورة العنكبوت:43]

فكيف يمكن للرسول القائل: (والعلم سلاحتي) أن يعارض القرآن ويخالفه وأن يجعل العلم نقيضا للعقل، إذا كان خلقه القرآن. قد اتضح من ذلك كله بأن استخدام العقل هو السنة النبوية والطريقة المحمدية، ولذلك قال فية أن العقل أصلي ديني.

## العقل وراثته لدى الفلاسفة العرب المسلمين:

فتح المسلمون جهات كثيرة من العالم المعمور، ولما فرغوا من هذه الفتوحات استقرهم الأمر أخذ عقلهم يتفلسف في الدين وينظر في بعض الآيات القرآنية المشاهدة، وحاولوا أن يوفقوا بينها، وقد اختلفت وجهات نظرهم في تأويلها، ثم إن القرآن تعرض لبعض الفرق الملحدة كالدهرية الذين يقولون ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾<sup>(33)</sup> حيث أمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بالرد على المخالفين بالموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(34)</sup>

فشغل المسلمون بالبحث في هذه المشكلات الجديدة، وخاصة أنه قد دخل في الإسلام كثير من النصراني واليهود والفرس والديريين والصائبة والبراهمة، وأثاروا عدة مسائل كانت في دياناتهم القديمة من جبر واختيار وتناسخ... الخ. وجد المسلمون أنفسهم أمام خصوم أقوىاء يجادلونهم بالمنطق ويدعمون حججهم بالفلسفة فاضطروا إزاء كل هذا إلى درس الديانات المختلفة كي يتعرفوا مواطن القوة والضعف منها، كما لجأوا إلى الفلسفة يتخذون منها عوناً ضد خصومهم، وتعلموا المنطق ليقرعوا الحجج بالحجة، والبرهان بالبرهان.

ويقول فيه الدكتور مرحباً: ولئن نفذت إلى الثقافة الإسلامية تيارات مختلفة اجتمعت فيها وتفاعلت إلا أنها مع ذلك أنبتت نباتاً جديداً طيباً لا هو باليوناني ولا هو بالفارسي ولا هو بالهندي. إنه نبات عربي إسلامي له طابعه الخاص الذي لا يقلل من شأنه إنه يسير في تيار الفكر اليوناني أو الفارسي أو الهندي، لأن الفلاسفة الإسلاميين يخالفون الفلاسفة اليونان في المفاهيم والأدلة والغاية وليس هذا الخلاف من وجهة نظر الدين وحده، بل في بعض المسائل الكبرى خلاف عقلي فلسفي من الطراز الأول...<sup>(35)</sup>

ويقول: كذلك الحياة العقلية في الإسلام، ففيها أروع الذخائر، وأجمل المفاهيم، وأجل الأسماء في الفكر الإنساني كما فيها أيضاً من هم دون هؤلاء وأقل منهم شأنًا، وفيها من هم بين ذلك. والحق أن عباقرة الإسلام لم يبرزوا في ميدان الفلسفة كما برزوا في ميادين الحياة العقلية الأخرى... وعلى كل حال، إن ما أعطاه المسلمون في عصورهم الذهبية كان القدر الذي يسمح بسواه فهو كل ما كانت تتسع له طاقات الفكر وقدراته<sup>(36)</sup>

فهذه الأسباب مجتمعة، كونت أول جماعة مفكرة في الإسلام ألا وهي علماء الكلام، ثم أظهر المسلمون حرصاً شديداً على كل ما نقل إليهم من لغات الأمم القديمة، فأخذوا يدرسونه ويتفقهون كنهه ويعقلون عليه، وظهر منهم فلاسفة وكونوا الأنفسهم نظريات خاصة في بعض القضايا الفلسفية التي تلقوها عن اليونان فمن هؤلاء يعقوب الكندي الذي يقول فيه العلامة (ماسنيون) إنه إمام أول مذهب فلسفي إسلامي بيغداد<sup>(37)</sup>



الحياة العقلية في التراث العربي الإسلامي وأسباب ركودها

ويقول فيه دى بور: إن (كوردان-Curdan) وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة بعد الكندي واحدا من اثني عشر يعتبرون أنفذ الناس عقلا، وأنه كان في القرون الوسطى يعتبر واحدا من ثمانية هم أئمة العلوم الفلكية<sup>(38)</sup>.

ثم جاء الفارابي بعدها فصحح تراجم كتب أرسطو وشرحها، ومهد لنهضة الفلسفة الإسلامية التي تكاملت بعده، وفيه يقول ابن خلكان: وهو أكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن منهم من بلغ رتبته من فنونه، والرئيس أبوعلی بن سینا بكتبه تخرج، وبكلامه انتفع في تصانيفه<sup>(39)</sup>.

ثم إن أبا نصر الفارابي هو أول من عنى بإحصاء العلوم، وترتيبها في كتابه (إحصاء العلوم) ومن أجل ذلك يعتبر بعض الباحثين أبا نصر أول واضع في العالم لنواة دوائر المعارف<sup>(40)</sup>.

وحسبنا لتبيان أهمية الفارابي في تاريخ الفلسفة الإسلامية أن نذكر أنه أول من فصل الفلسفة من علم الكلام... لقد نوقش الفارابي وفندت آراؤه، لكن أثره كان من القوة بحيث أن أحدا لا يعرف ما كان عساه أن يكون الفكر الفلسفي في الإسلام لولا الفارابي<sup>(41)</sup>.

وقد تأثر إخوان الصفا بالكندي في فلسفة الطبيعة، وبالترجمين وآرائهم، وبالفارابي في إحصائه للعلوم، ووضعوا رسائلهم هي أشبه بدائرة المعارف التي معروفة في أيامهم، والحياة العقلية لدى العرب ولا شك تشمل كل أنواع العلوم والآداب وأصناف الفنون والصناعات، وإذا درسنا الحياة العقلية عند العرب لم نجد فنا من فنون العلم التي عرفها الأقدمون ولا ضربا من ضروب الهزل والجد التي اشترك فيها الناس، إلا وقد أخذ العرب منه بحظ غير قليل، أخذوا منه بحظ موفور أضافوا عليه صبغتهم، وطبعوه بطابعهم، ولونوه بلونهم الخاص، فليس فيه ما يدل متكلف أو مستعار ولولا أن التاريخ نفسه يدلنا على أن العرب المسلمين قد نقلوا فنون العلم عن الأمم التي سبقتهم إلى الحضارة لخيّل إلى الباحث أن العلم فيهم قديم.

لا يمكن في هذه العجالة أن نتكلم عن جميع فلاسفة العرب المسلمين وعن نواحي النشاط العقلي عندهم في عصرهم الذهبي من التأريخ الإنساني، وإنما حسبنا أن نقدم أسماء بعضهم على سبيل المثال لا الحصر. ومن أراد تبينا بفلاسفة العرب المسلمين وما ألفوا من كتب، وما ترجموا من رسائل، فليتمس ذلك في فهرست ابن ندیم، وتراجم الحكماء للقفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وأشهرهم:

1. الفارابي (257-339هـ-950:870م)
2. ابن سینا (370:428هـ-980:1037م)
3. أبوالعلاء المعري (362:449هـ-973:1057م)
4. الإمام الغزالي (450:505هـ-1058:1111م)
5. ابن رشد (520:595هـ-1126:1198م)

6. ابن خلدون(732:808هـ-1332:1406م)

حيث قد عالج كل من هؤلاء مشكلة العقل في الرسائل و الكتب المختلفة المستقلة , و نخص بالذكر منهم الفارابي لانه قد عالج هذه القضية في مواضع متفرقة من كتبه و زاد على ذلك بان وقف عليها رسالة مستقلة خاصة تبحث في معاني العقل-

والذى يهمننا من هذه المعاني هنا جعله العقل على أربع درجات؛

- أ- عقل بالقوة
- ب- عقل بالفعل
- ج- عقل مستفاد
- د- عقل فعال

فالعقل الذى هو بالقوة هو قوة من قوى النفس أو شئ ماذاته معدة أو مستعدة لأن تنتزع ماهيات الموجودات كلها وصورها دون موادها، فتجعلها كلها صورة لها أو صوراً لها، وتلك الصور هى العقول، ويسمى هذا العقل أيضاً عقلاً هيلولانئاً، لأنه شبه المادة الأولى التى تقبل جميع الصور، والصور تنتقش فىه كما يمنتقش الرسم فى الشمع، إلا أن المواد الجسمانية تقبل الصور فى سطوحها فقط دون أعماقها وهذه الذات ليست تبقى ذاتها متميزة عن صور العقول، بل هذه الذات نفسها تصير تلك الصور

الفارابى قد فصل القول حول هذه المعاني للعقل كما بسط قوله حول النفس وماهياتها وفى الأخرى يقول: فالنفس العاقلة هى جوهر إنسانى عند التحقىق، انها جوهر روحانى بسىط مبانى للبدن، مفارق له، قائم بذاته، وليس عرضاً من أعراض الجسم<sup>(42)</sup>

### العقل وورثته في الأدب العربي:

وإذا نظرنا إلى التأريخ الحضارى على العموم والحياة العقلية على الوجه الخصوص لدى العرب نجد فنا من فنون العلم، إلا وقد شارك فيه العرب وقدموا من خدمات قد شاهدت بها الدنيا، وما يزال يشهد بها العلماء إلى يومنا هذا، وأقل نظرة إلى العلوم العربية كالنحو واللغة، والنقد الأدبي وعلوم البلاغة، والتفسير وأصوله والتأريخ والجغرافيا، والتطور فى الصنوف الشعرية والنثرية. كل ذلك تدل على النضج العقلي، وعى عظم التراث الذى خلفه العرب.

كان من المفروض هنا الإحاطة بجميع النواحي العقلية فى الأدب العربي بقدمية وحديثه، ولكن نكتفى بذكر أهم الأقوال فى مكانة العقل لبعض جهابذة الأدب العربي، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، أمثال ابن المقفع والجاحظ والمعري وكل ذلك من خلال أعمالهم الأدبية.

### العقلانية عند ابن المقفع:

الباحث في أعمال ابن المقفع يلاحظ أنه لا يبدو متأثراً في موضوع العقل بالثقافة الإسلامية تأثراً ذا بال، فهو لا يذكر الآيات المتضمنة معنى العقل ولا يحيل على أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يوجد في مؤلفاته ذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولا عرج على الخلفاء الراشدين مع ما نسب لعلبي بن أبي طالب رضي الله عنه من بليغ الحكمة وقد ورث العرب أيام ابن المقفع بعض الأقوال المنسوبة إلى العرب في العهود القديمة.

نجدّه يشير إلى ذلك قائلاً: أن أصل العقل التثبث وثمرته السلامة<sup>(43)</sup> وقد يكون القصد من التثبث هذا تحميل السلوك أو تحصيل المعرفة أو إدراك حقائق الأمور التي تلتبس على البرايا ومن بين الأمور التي تساعد على حسن التصرف أن يجعل الهوى خاضعاً للعقل وفيه قوله: على العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذرهما.<sup>(44)</sup>

وهو يؤثر أهل المعرفة بالسلطان ويقول: أحق الناس بالسلطان أهل المعرفة وأحقهم بالتدبير العلماء<sup>(45)</sup> وقد ذكر ابن المقفع الكلام ناسباً إلى الفيلسوف الهندي (بيدبا البرهمي) الذي قال: إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من سائر الحيوان أربعة أشياء وهي جماع ما في العالم وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل<sup>(46)</sup>

وهكذا نجد أنه يفتتح كتابه الأدب الصغير بامارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر<sup>(47)</sup> لقد رأى ابن المقفع الدنيا طريقاً للأخرة بل رآها زوالاً يؤدي إلى بقاء دون أن يصل هذا التضارب بين العقل والإيمان، يقول: (من لا عقل له فلا دين له ولا آخرة)<sup>(48)</sup>

ويعرض ابن المقفع للدين وقيم موازنة بينه وبين الرأي فيعمد إلى الاستدلال المنطقي الشبيه بالمنطق الصوري ليوضح طبيعة العلاقة بين الفرد والدين ويقول: فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان وأن الرأي يثبت بالخصومة فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ومن جعل الرأي ديناً صار شارعاً ومن كان هو يشرع لنفسه فلا دين له<sup>(49)</sup>

### العقلانية عند الجاحظ:

وهكذا نجد المعرفة عند الجاحظ إنما تصل بين العقل والعقيدة والعلم والدين. والأعجب من ذلك أن المعرفة عنده تفتتح على الآخر وتعترف بحضارة الإنسان وبأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها لذلك فقط ينمى الجاحظ الأجيال المتلاحقة للمعرفة الإنسانية قد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى أثره ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها.... حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق.... لما حسن حفظنا من الحكمة وضعف سبيلنا إلى المعرفة...<sup>(50)</sup>

وهكذا يتجدد تصور كل ثقافة بانفتاحها على الثقافات الأخرى، وعند الجاحظ تبعاً لفهمه الله والإنسان والعالم لذلك انطوى كتاب الحيوان على تصور للخالق ورؤية شاملة لمزلة الإنسان في الكون والمجتمع وعلى تصور للمعرفة لسببها وأسبابها وبهذا المعنى فإن العقلي في الكتاب سيكون في مستويين: الكون بما فيه: والقرآن. وعمل الجاحظ في كتابه هذا محاولة لبيان تجلي العقل في الكون وفي القرآن فالكون بما فيه دليل قائم على حكمة الباري والقرآن كلام مبين و دليل ناطق بحكمة الخالق يقول الجاحظ: ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة ووجدنا الحكمة على ضربين: شئ جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة وشئ جعل حكمة وهو يعقل الحكمة و عاقبة الحكمة... فاستوى بذلك الشئ، العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل<sup>(51)</sup>

والجاحظ أنه قد التزم منذ البداية ذلك المهاد النظري مدخلا لعلمه واعتبره منطلق التفكير وغايته. ثم نجد أنه قد أنشأ مناهج لوسائل المعرفة، منها العقل ويقول: ولعمري إن العيون لتخطئ وإن الحواس لا تصدق وما الحكم الصادق إلا للذهن وما الإستبانة الصحيحة إلا للعقل<sup>(52)</sup>

وكما أن الشك عند الجاحظ منهجي يحتز في قبول الأخبار ولا يرفضها حتى ينتهي به الذهن إلى الحكم القاطع ذلك أنه: للأمر حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة<sup>(53)</sup> ثم إن كتابه (الحيوان) قد قدم للعرب المسلمين في تأريخهم الحافل بالانتصارات والمزائم أذاتين لإستشراف ركب الحضارة الإنسانية: أولاً التطهر من الأساطير ثانياً إعمال العقل، لأن مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة...<sup>(54)</sup>

وفي النهاية الإعتبار عند الجاحظ يرد إلى مرجعية دينية والقصد منها البرهنة على حكمة الخالق فيكثر في كتاب (الحيوان): العجب ومشتقاته يقول الجاحظ: والإنسان وإن أضيف إلى الكمال، وعرف بالبلاغة وفاتش العلماء فإنه لا يكمل أن تحيط عامة بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمدَّ بكل نظار واستعان بكل بحاث واع... فالعقل عند الجاحظ لا يتجاوز أكثر مما كتب له إدراكه<sup>(55)</sup>

#### العقلانية عند المعري:

دعا المعري إلى تحكيم العقل الفطري (الأصيل) في النزاعات، وفي المنهج كما تجلت عقلانيته في غياب الذاتية في نقده، فكانت آثاره ذات طابع عقلي في النهج والموضوع. الباحث في أفكار المعري يجد أن لديه إهتماماً واضحاً بالعقل وقضاياها وبالمعرفة وموضوعها، فهو يقول:

الحياة العقلية في التراث العربي الإسلامي وأسباب ركودها

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشير في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحمة في المسير والأرساء (56)

ويوضح مفهوم الإمام في كتابه (زجر النابح) بالقول: إن الإنسان إذا سمع ما يخالف الشرع به دله عقله على فضله فكأنه إمام له وليس هذا انتقاضاً بإيام المسلمين<sup>(57)</sup> وهو في هذا لا يخرج عن الرأي الديني العام في العقل وهو لا يتناقض مع قوله:

أيها الغر إن خصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبي

وبسبب احترامه العقل أو رأيه الديني فيه هاجم السفسطائية التي أنكرت الحقائق قائلاً:

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى

فنحن وهم في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعما (58)

وجاء المعري ليقاوم التقليد في المعتقد وليحكم العقل فيكشف الزيف والتناقض والأغراض الخسيسة ويدعوا إلى أمرين لا ثالث لها: إخضاع كل شئ لميزان العقل أو العزلة والإنفراد لتحصين العقل من شعور الناس وأمراض المجتمع حتى لا تستوى عندئذ الأضداد ويصبح الجهل خباراً مشروعا:

فلما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

وقوله:

واللب حرف والجهالة نعمة والكيس الفطن الكائس (59)

ويقول الدكتور عمر فروخ في هذا الصدد: يعتقد المعري أن من اتبع عقله لم يضل، هذا إذا كان له عقل! أما إذا لم يكن له عقل فهو يعمل أعماله بالتقليد، أو يساق إليها كالعجماءات ولم يكتف المعري بأن يحكم العقل في الأمور التي حرت العادة بتحكيمة فيها، بل أراد أن يكون العقل حكماً في كل شئ. و تبرر هذه الدعوة إلى الإهتداء بنور العقل والفكر في أكثر الأغراض التي تناوها المعري في لزومياته: حتى في العبادات، وهو في كل ذلك يزدري شبيهاً ازدراء شديداً: التقليد والأخبار المروية: ولذلك تراه يتلقى كل خبر مروى أو كل عادة شائعة بميزان العقل.. (60)

ويقول: وقد يعجب أحدنا فيقول: إن المعري يهاجم المعتزلة، مع أنهم يفضلون العقل على النقل كما يفعل هو هنا، أجل أنه ليس معتزلياً وإن كان يرى رأيهم في تفضيل العقل على ما روي في الدين من أخبار، وإنما هو يهاجم من المعتزلة أولئك الذين يضيعون أوقاتهم وأوقات غيرهم بالجلد العقيم، لا الذين يجلون العقل مرتبة سامية<sup>(61)</sup>

ولقد بالغ المعري فجعل العقل نبيا حيث بجده يقول:

فشاور العقل اترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادي  
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل (62)  
وفي رأي أبي العلاء أن الفضائل والردائل موضوع تجاذب دائماً بين الطبع والعقل: الطبع يدفع إلى الشر والرديلة والعقل يدعوا إلى الخير والفضيلة، لكن النفس في اعتقاده، نزوعة إلى الشر، أمة بالسوء، مؤثرة للغريزة الحيوانية، ولذا تغلبت أبداً على العقل، وكان نصيب العقل الفشل التام في ما يحاول من إصلاح النفس وصقل الطبع وبهذا يعلل أبو العلاء ضالة الفضائل وانتشار الردائل في مناحي الحياة الإجتماعية: قال في استفحال النضال بين العقل والهوى:

ولسيد الأقسام عند حجابة طبع يقاتله الجحى ويحارب  
والشر في الجذ القديم غريزة في كل نفس منه عرق ضارب (63)  
و من أحسن ما قاله في العقل وهوى النفس:

نهابي عقلي عن أمور كثيرة وطبعي إليها بالغريزة جاذبي  
وما أدام الرُزء تكذيب صادق على خيرة منا، وتصديق كاذب (64)  
ويرى أن النضال بين العقل والهوى مستمر لا ينتهي إلا بالموت:

اللب حارب تركيبا يجاهده فالعقل والطبع حتى الموت خصمان (65)  
واليد العليا فيه أبداً للطبع على العقل:

إلى الله أشكو مهجة لا تطيعني وعالم سوء ليس فيه رشيد  
حجىً مثلُ مهجور المنازل دائر وجهل كمسكون الديار مشيد (66)  
ومن خير ما له في المعقول والمنقول:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارث والجوس مضلله  
إثنان أهل الأرض، ذوالعقل بلا دين وآخر دّين لا عقل له (67)  
ذهب أبو العلاء في تفكيره نزعة مثالية فلا يقبل إلا ما يثبتته العقل، ويؤيده البرهان وهذا مبدأه، ليس في شعون الحياة الإجتماعية وحدها، بل وفي عقائده الدينية، إذا هو يحكم بها العقل إلا في مواقف قليلة، تستولى فيها عليه الخيرة، فيقر بالجهل ويستسلم للعاطفة أو العقيدة التقليدية قال مؤمناً بمُدَى العقل:

العقل يوضح للنسك منهجاً فاخذ جزوه فليس يظلم قلب وفيه لب جزوه (68)  
وقد يغالي في الإستسلام إلى منطق العقل المجرد فيحمله على التشكك في الكتب الدينية، وفي ما جاء فيها من أخبار الأوّلين، وربما اعتبرها مما وضعه الأولون يرومون به فرض أنفسهم على الناس، وجمع حطام الدنيا قال:

أفيقوا أفيقوا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء

الحياة العقلية في التراث العربي الإسلامي وأسباب ركودها

أراد بها جمع الحطام فادركوا وبادوا، وماتت سنة اللؤماء<sup>(69)</sup>

وفي النصوص التالية يلفت الأنظار إلى أهمية العقل في لغة خطابية و واعظية:

والعقل كما لبحر ما غيضت غواربه شيئاً ومنه بنو الأيام تغترف<sup>(70)</sup>

وقوله:

فشاور العقل واترك غيره هدراً فالعقل خير مشير ضمه النادي<sup>(71)</sup>

وقوله:

وإنك إن تستعمل العقل لا يزل مبيتك في ليل بعقلك مشمس<sup>(72)</sup>

وقوله:

اللب قطب والأمور له رحي فسيه تدبّر كلها و تدار<sup>(73)</sup>

وقوله:

وكم غرت الدنيا بنيتها وساء بي مع الناس مين في الأحاديث والنقل

سأتبع من يدعوا إلى الخير جاهدا وأرحل عنها مأمامي سوى عقلي<sup>(74)</sup>

فهو يشك بقيمة الفكر الإصطلاحي و يؤمن بجوهر العقل دون مادة التعقل الكثيفة بالأوهام،

والمتناقضات فاطراح كل معرفة سابقة هي المقدمة لكل معرفة صادقة:

لعمرك ما غادرت مطلع هضبة من الفكر إلا وارتقيت هضابها<sup>(75)</sup>

وقوله:

إن عذب المين بأفوافكم فإن صدقي بغمي أعذب<sup>(76)</sup>

هذه هي قصة العقل في تراقنا العربي، وما قصدي بها إلا رفع الستار عن الحقيقة وإزالة الخفاء عن

الحق المبين الذي سلك عليه رواد أدبنا العربي واتخذوه طريقا للوصول إلى غاياتهم الأدبية.

### أسباب ركود الحركة العقلية في التراث العربي الإسلامي:

هذه هي شحة موجزة و وقفة قصيرة حول قصة العقل في التراث العربي بدءاً من العصر الجاهلي إلى

اضمحلال الحركة العقلية بين الأوساط العلمية والأدبية حيث أنه وجد في احضانه جوا ملائماً مناسباً نشأ

وترعرع حتى وصل أوج ثريه ثم فارقه كما هي سنته وذلك بسبب ضعف حركة الإبداع والتأصيل،

وحمدت بعد انطلاقتها الرائعة في عصر الازدهار و تسهيلات للبحث يمكن اتخاذ حدثين سياسيين كمنحنيات تأريخية

للتدهور: اولهما: انهيار السيادة العربية والنخسار المد الإسلامي في المشرق العربي بسقوط عاصمة العلم والمعرفة

والحكمة دارالسلام بغداد، وذلك في العاشر من شباط سنة (1258م) عند مازحفت جحافل (هولاكو)

التتاري، حفيد (جنكيز خان) على المدينة فقتلت و شردت ما لا يحصره عد أو حساب.

وثانيهما: زوال الحكم العربي الإسلامي وانهاره في المغرب العربي وذلك بسقوط قرطبة لؤلؤة الأندلس في اليوم التاسع والعشر من حزيران سنة (1237م) وذلك على أيدي براهرة النصارى<sup>(77)</sup> وإلى جانب هذا الإنحسار السياسي الذي لعب دورا أساسياً وجوهرياً في ركود الحركة العقلية، فإن ثمة عوامل أخرى، سابقة عليه، أو مرافقة له، أو ناتجة عنه ساهمت بدورها مجتمعة في الجمود والركود الفكري، من ذلك: ردود الفعل السلبية العنيفة التي رافقت وتولدت عن هجمة الإمام الغزالي (ت505هـ) العارمة على التراث الفلسفي العقلي، بخاصة في جوانبه الإلهية والتي بلغت ذروتها وغايتها بتكفير فلاسفة الإسلام في جملة أمور معروفة لطالب الفلسفة: وتبديعهم في قضايا أخرى.

لقد فتحت هذه الحملة أبواب النقد والتهكم والتشنيع على الفلسفة أمام اللاحقين للإمام الغزالي فشمّر المتكلمون عن سواعدهم في تثبيت هذه التهمة وتأكيدتها وتقريرها وذلك قرناً بعد قرن ممثلة في كتابات مشاهيرهم أمثال الشهرستاني (ت548م) والسهوردي البغدادي (ت632هـ) وابن صلاح الشهرزوري (ت643هـ) وابن تيمية الحراني (ت728هـ) وجلال الدين السيوطي (ت911هـ) وغيرهم.

كذلك فإن الحملة التي بدأها الغزالي واستمرت من بعده بلا انقطاع، بل في سيلان مستمر و دائم، سبب تحول التيار الفلسفي بنهجه العقلي والمنطقي، إلى منهج: حدسي، صوفي، عرفاني، يعتمد الكشف والبصيرة والإلهام وسائل لمعرفة صارت تدعى لنفسها: الصدق واليقين والاطلاق باعتبارها معرفة معصومة لا يرقى إليها شك، ولا تخضع لمقولات العقل المنطقي وأحكامه، من حيث أنها ليست من نوع المعارف المكتسبة والمتعارف عليه من العلوم والصناعات ولا تتأتى عليه بحث أو درس أو عن مطالعة وقراءة.

وهكذا أصبحت الحكمة المؤسسة على الإشراف الإلهي والفيض الرباني، والمدد الروحاني طريق الفهم الصحيح واليقين الصادق والحقيقة المطلقة التي لا ترى فيها عوجاً ولا امناً، في حين غدت المعرفة الفلسفية المؤسسة على المنطق والإستدلال والبرهان طريقاً ينتهي، بل ويؤدى لا محالة إلى: الحيرة والإضطراب والشك والندم، واليأس والقنوط<sup>(78)</sup>

وهذا التحول عن المنهج العقلي الذي يفضى بطبيعته إلى معرفة إنسانية تحمل معها قابلية النماء والتجدد، من حيث أنها تخضع: للنقد والتوجيه والمراجعة، باعتبار أن قضاياها عامة، مما يمكن للعقل أن يحكم فيها سلماً أو إيجاباً، إلى معرفة هي نتاج ملكة خارقة وتدعى تبعاً لذلك: العصمة واليقين والاطلاق فلا تخضع لمقولات المنهج العقلي - حيث لا منهج - وإن هذا التحول كان السبب تحدياً للإبداع، والعامل الأقوى أثراً في سيادة فكر، سلطوي وثوقي، قطعي الدلالة، يرى أنصاره في (الجمود والركود والجمود) أفضل حالات طالب المعرفة مع شيخه ومعلمه وأستاذه.

بدلاً من أن تصطبغ العلاقة بين طالب المعرفة وأستاذه بروح المناقشة والمحاورة والإستنتاج الصحيح، اتخذت صورة تقليد (السماع) بلا رؤية ولا تبصّر من عقل وتجريب ذلك أن أفضل حالات المرید (بحسب هذا



الحياة العقلية في التراث العربي الإسلامي وأسباب ركودها

الفهم) مع شيخه، أن يكون بين يديه كالميت يقلبه كيفما شاء، بلا إرادة وإن له ذلك، وبداية الطريق تعني فناء إرادة المرید في إرادة شيخه<sup>(79)</sup>

ومما أعان على هذا الركود والجمود الفكري أيضاً: خصوصية لغة الفلسفة وصعوبتها وعسرها، بخاصة في مفهوماتها ومصطلحاتها الفنية التي لم يكن من السهل على عامة المثقفين الإحاطة بها في يسر، فظلت لغة الخواص، بل إن شئت فقل: لغة خاصة الخواص لا يقدر على استيعابها وإدراك جزئياتها إلا القلة، فصارت وكأها ثقافة متعالية عن جمهور الناس مما زاد في (عجمتها) وأعان على تأكيد وتقرير (عربتها) عن الجو الثقافي العام، باعتبارها من (العلوم الدخيلة) أو المموهة والمنتحلة أو (المهجورة) التي وإن انتبست إلى العلم فهي لا تمت بصلة عضوية أو تجانس روحي إلى روح الأمة وفكرها وإلى العلم الشرعي الثابت بالوحي والنبوة<sup>(80)</sup>

وهذه التهمة عن مجموع أهل العلم يومذاك كانت من أشد التهم أثراً في هذا الخصوص، فقد بدأ الإمام الغزالي هجمته بها وسار على أثره اللاحقون ممن وجهوا الفلاسفة دعوى (التمييز عن الأقران والآخريين بمزيد الفطنة والزكاء....<sup>(81)</sup>

وكذلك من أهم الأسباب التي أدت الأمة العربية الإسلامية إلى الركود الفكري، نظرهم إلى الماضي نظرة اعتبار وعظمة، والإكتفاء بما فعله القدماء، بل وظنهم فيهم وأفكارهم بالقداسة والعبادة، ثم عدم الرغبة في التحول بمقتضيات العصر الحاضر، والقبول بما تصنعه أيدي البشر وعقولهم من الجديد من الموجودات وما وراء المنظور.

لا يفوتني في الأخير أن أنقل ما قاله (ديكارت) في هذا الصدد، حيث تتضح به حقيقة الأمر، وقصة خمود الحركة العقلية في التراث العربي الإسلامي فيقول:

بدأ التخلف والركود في الحياة العقلية عند العرب المسلمين، لما أخذوا الغزالي ومنهجه، وتركوا ابن الهيثم ومنهجه في باب العلم والمعرفة<sup>(82)</sup>

### الهوامش

1. أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون، ص35 وما بعدها.
2. Contribution to history of Islam civilization: Huda Bukhash, V-1, P-171
3. لويرن جوستاف: حضارة العرب، دار المعارف، ط: الأولى، مصر، 1991م ص92
4. Muhammad The Prophet: Muhammad Ali, P-6
5. جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة النهضة، مصر، بدون، ص277 وما بعدها
6. سورة سبأ، رقم الآية: 15

7. المرذوقى:أبوعلي؛ الأزمنة والأمكنة ، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون، ج2،ص162
8. ابن هشام: السيرة النبوية، دار ابن باز، مكة المكرمة، بدون، ج3،ص162
9. الأصفهاني: أبو الفرج، الأغاني، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، بدون، ج3،ص26
10. صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ، دارالعلم للملادين، بيروت، 1960م، ص74
11. دائرة المعارف الإسلامية:(ذكر مكة)
12. الجاحظ: البيان والتبيين ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1948م، ج1،ص365
13. الجاحظ: الحيوان، دار الكتاب العربي، بيروت، 1960م، ج6،ص30
14. ابن خلدون: المقدمة ، المكتبة السلفية، الهند، بدون، ص214
15. الميداني: مجمع الأمثال ، دارالعلم للملادين، 1958م.ج2،ص52
16. الجاحظ: الحيوان:ج6، ص29
17. السيرة النبوية:ج1، ص165
18. الجاحظ: الحيوان:ج3،ص438
19. أبو تمام: ديوان الحماسة ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1948م، ص65
20. الميداني: مجمع الأمثال ،ج2،ص63
21. مرحبا: د عبدالرحمن؛ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون، ص254-255.
22. سورة الحج، رقم الآية43
23. سورة العنكبوت، رقم الآية43
24. من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية،ص258
25. المرجع السابق،ص255
26. المرجع السابق،ص256
27. سورة رقم الآية
28. سورة رقم الآية
29. سورة رقم الآية
30. ابن رشد: فصل المقال ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1965م، ص28

31. للقاضي عياض: كتاب الشفاء في بيان حقوق المصطفى ، دار بيروت للطباعة والنشر،

1960م، ص75

32. سيد سليمان: رحمة للعالمين، غلام علي بيليشرز، ط: الثانية، لاهور، ج3، ص229

33. سورة رقم الآية

34. سورة رقم الآية

35. من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص352

36. المرجع السابق، ص353-354

37. مجلة المشرق: العدد12، سنة1911م، ص36

38. دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة الكندي، ص275

39. ابن خلكان: وفيات الأعيان ، دار المعارف، مصر، 1967م، ص355

40. مصطفى باشا عبدالرزاق: فيلسوف العرب والمعلم الثاني ، مهر جان الفارابي، بغداد،

1976م، ص70

41. من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص375

42. الفارابي: رسالة في معاني العقل، ص:22-25

43. عبدالله بن المقفع: الأدب الصغير، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1962م، ص335(من

المجموعة الكاملة)

44. المصدر نفسه، ص324

45. المصدر نفسه، ص329

46. المصدر نفسه، ص224

47. المصدر نفسه، ص320

48. المصدر نفسه، ص330

49. المصدر نفسه، ص329

50. الحيوان، ج1، ص33

51. المصدر نفسه، ج1، ص30

52. المصدر نفسه، ج1، ص53

53. المصدر نفسه، ج1، ص204
54. المصدر نفسه، ج1، ص35
55. المصدر نفسه، ج1، ص301
56. المعري: أبو العلاء؛ ديوان لزوم مالا يلزم ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الأولى، 1996م ، ج1، ص55
57. المعري: أبو العلاء؛ زجر النابح، الشركة العربية، للنشر والتوزيع، بيروت، بدون، ص18
58. لزوم مالا يلزم، ج1، ص291
59. المصدر نفسه، ج2، ص35
60. فروخ: الدكتور عمر؛ تأريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت، بدون، ص358
61. المرجع نفسه، ص358
62. لزوم مالا يلزم، ج1، ص90
63. لزوم مالا يلزم، ج، ص
64. لزوم مالا يلزم، ج، ص
65. لزوم مالا يلزم، ج، ص
66. لزوم مالا يلزم، ج، ص
67. لزوم مالا يلزم، ج، ص
68. لزوم مالا يلزم، ج، ص
69. لزوم مالا يلزم، ج، ص
70. لزوم مالا يلزم، ج2، ص101
71. لزوم مالا يلزم، ج1، ص275
72. لزوم مالا يلزم، ج1، ص633
73. لزوم مالا يلزم، ج1، ص423
74. لزوم مالا يلزم، ج، ص
75. لزوم مالا يلزم، ج، ص
76. لزوم مالا يلزم، ج، ص
77. كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص:213.

- .78 بدوي: عبدالرحمن؛ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية: ص: 123.
- .79 القشيري: الرسالة القشيرية، ص: 99.
- .80 التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص: 124.
- .81 سىلمان دنى: مقدمة تهافت الفلاسفة، ص 59
- .82 البستاني: فواد؛ من ضحاى العقل.، ص 311 (من المهرجان الألفي)